

الباب الأول

العربية وقانون التطور

- ١- في يثها الأولى بالعصر الجاهلى
- ٢- مع حركة الفئوح الإسلامية خارج الجزيرة
- ٣- النصحى ولجأتها الإقليمية فى الأقطار المتعربة .
- ٤- مع النهضة العلمية فى عصر الحضارة الإسلامية .
- ٥- مع حركة الإحياء فى الغرب الأوروبى .

obeikandi.com

العربية في بيئتها الأولى

إذا كان العامل الديني هو الذي يعطى
التفسير التاريخي لانتشار العربية ، فإن هذا
لا يعنى أنها لم تكن في ذاتها صالحة للبقاء .
وإلا فقد كان حسبها أن تبقى لغة دينية .
وتترك اللغات الأصلية للشعوب المسلمة .
بجانب الحياة العامة .

obeikandi.com

من حيث كانت الجزيرة العربية هي مهد اللغة المشتركة التي اتخذتها شعوب أمتنا لساناً قومياً لها بعد أن أسلمت .

يكون من المجدى أن نلثفت إلى الأصل المشترك في لغة العرب قبل أن تخرج من بلادهم ، ثم بعد أن انتشرت مع الفتوح الإسلامية من المشرق الآسيوى إلى أقصى المغرب الإفريقى .

• • •

وإذا كان العامل الدينى هو الذى يعطى التفسير التاريخى لانتشار العربية فإن هذا لا يعنى أنها لم تكن فى ذاتها صالحة للبقاء ، وإلا فقد كان من المتصور أن تبقى لغة دينية ، وتترك اللغات الأصلية لشعوب المنطقة مجال الحياة العامة ، على نحو ما حدث للغة القبطية التي ظلت لغة الكنيسة المصرية لمن اختاروا البقاء على نصرانيتهم من أهل مصر ، دون أن تتجاوز هذا النطاق الدينى المحدود إلى المجال العام .

• • •

وليس من الصحيح إطلاقاً . أن اللغة العربية اعتمدت فى انتشارها على السلطة الحاكمة . كما تصور بعض الدارسين فيما سموه « سلطان اللغة الغازية » ويعنون به القوة المستمدة من السلطان السياسى . « فكلما كان للغازى سلطانه الذى لا يُرد . كان للغتة هي الأخرى سلطان لا يرد . والشعوب المغلوبة تسعى دائماً إلى التقرب من الشعوب الغالبة تجاهلها فى كل شئ . وتحاكبها فى كل شئ » ، وليست ثمة وسيلة للتقرب خير من اللغة . من أجل ذلك كانت الشعوب المغلوبة أسرع إلى التحلل من لغتها والدخول فى لغة الغالب « (١) .

لقد غزت المنطقة لغاتٌ أخرى قبل الإسلام ، مؤيدةً بالسلطان

(١) من مقدمة إبراهيم الايبارى لكتاب (القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من

لغة العرب ، لابن أبى السرور الشافعى) - وزارة الثقافة بمصر .

السياسي ، لكن الشعوب المغلوبة رفضتها متشبثة بقديمها محافظة على ترثها .
فانحصرت لغات الغزاة الغالبين في الدواوين والرسميات ، لم تتجاوزها من
قريب أو بعيد إلى اللغة القومية .

وفي عصر الاستعمار الحديث ، نرى الدول الغازية كان لها سلطان مسيطر
على أقطار الوطن العربي ، وقد حاولت جهدها أن تفرض عليها « سلطان
اللغات الغازية » فلم تبادر شعوبنا المغلوبة إلى التقرب من الغزاة الغالبين
ومجاملتهم ومحاكاتهم في كل شيء ، ولم تسع دائماً إلى التحلل من لغتها العربية .
بل ناضلت عن وجودها الوطني ضد المسخ والسلخ . وعن لسانها القوي
ضد الغزو ، فانحصرت اللغات الغازية في الدواوين ودور التعليم الخاضعة
للغالب . وبقيت شعوبنا بمعزل عنها . ترفضها في عناد وإصرار ^(١) . فيما عدا
قلة من المثقفين المتفرنجين . الذين استعاروا لغات الغزاة بالقهر والسلطة .
أو عن طواعية تقليد ومحاكاة وتقرب إلى الحكام . وهذه القلة من المتفرنجين
لا يمكن أن تمثل وجدان الشعب وضميره . ولا يجوز أن نحكم بسلوكها على
الملايين من جماهير الشعوب العربية التي ما نعرف أنها تخلت قط عن لغتها
القومية ، ولا سعت إلى التقرب من الغزاة ومحاكاتهم فأسرعت إلى التحلل
من لغتها ودخلت في لغة الغالب !

يصدق هذا على أقطار المشرق العربي . كما يصدق على أقطار المغرب
التي امتحنت بأضرى غزو لغوى ، واجهته الشعوب بالرفض والسخط والإنكار ،
وقاومت المسخ والسلخ فخاضت معارك التحرير .

وهذه قضية نعرض لها فيما بعد ، بما يلفتكم إلى ما ينبغي لكم من حذر

(١) انظر مثلاً كتاب (الملينية في مصر) لرولد بل (ص ١٨ من الترجمة العربية للدكتور
زكي على ط ١٩٥٩ .

واقراً معه كتاب الدكتور عبد المجيد عابدين (لحات من تاريخ الحياة الفكرية في مصر ،
قبل الإسلام وبعده) ص ٣٢ ، ٩٥ - ط أولى ١٩٦٤ .

فى التسليم المهين لكرامتكم العقلية ، بدعاوى راجت وذاعت حتى بدت
من البديهيّات الضرورية والحقائق المقررة ! .

* * *

ونعود فنقول : لولا أن اللغة العربية فى ذاتها كانت صالحة للبقاء ،
لأنحصرت فى النطاق الدينى للشعوب المسلمة : أو فى المجال الرسمى خضوعاً
للسلطة السياسية .

والعربية التى وصلت إلينا فى تراث الجاهلية المعروفة لنا ، ومداه قرنان
قبل الإسلام ، قد مرت فى قديمها بمراحل تهذيب وصقل وتصفية وانتقاء ،
حتى بلغت مستوى عالياً من دقة الدلالة وإحكام الصياغة والتعبير ، استطاع
معه العلماء من عصر التدوين وما بعده ، أن يستخلصوا من تراث الفصحى .
قواعد الصرف والنحو والاشتقاق والوضع ، وضوابط العروض ، وأحكام البلاغة
وأساليب البيان .

لقد وصلت إلينا من قديم جاهليتها . بعد أن أهملت الحوشى والغريب
والثقل . وما تنافر فى حروف اللفظ أو كلمات الجملة . وهذبت صيغها
بالإعلال والإبدال والقلب والإدغام والحذف^(١) .

واستقرت على ضوابط للتأنيث والتذكير ، وللأفراد والثنىة والجمع ،
وميزت المعلوم من المجهول ، والمعرفة من النكرة . وتصرفت فى المادة اللغوية
بصيغ مطردة لكل منها دلالتها المحددة ، وتصرفت فى الفعل لضبط الزمن
تحديداً للماضى المطلق والقريب والحاضر . والمستقبل القريب والبعيد والمطلق ،
واستخدمت الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة بدقة وإحكام . للمتكلم
والمخاطب والغائب . منفرداً ومثنى وجمعاً .

(١) انظر : سر الفصاحة للخفاجى ، والمزهر للسيوطى (النوع التاسع) والعربية الفصحى

كما حكمت المعاني بصيغ المشتقات . ونسق الألفاظ وترتيبها في الجمل ،
وسياق العبارة ، وعلامات الإعراب .

وتوسعت في الدلالات المجازية لكي تنمو وتلبي حاجات الحياة ، فنقلت
الألفاظ من الاستعمال الحسي إلى الاستعمال المجازي والاصطلاحي .

وكذلك تطورت الأساليب العربية من قديم ، فخرجت عن أصل الوضع
اللغوي إلى معان مجازية وأساليب بلاغية لملاحظ فنية جمالية . كالذي تعرفون
من خروج أساليب الخبر من دلالتها الأصلية إلى الدعاء والاسترحام والتفجع ،
وأساليب الأمر والنهي والاستفهام عن معانيها اللغوية الأولى ، إلى الزجر والتفريغ
والإلزام أو الجحد والإنكار . والعدول في التعبير عن أصل استعماله اللغوي ،
بالاستعارة والمجاز والكناية .

ووصل إلينا الشعر الجاهلي بعد أن مر بمراحل طفولته ونموه ، محكم
الإيقاع متنسق النغم مرهف الحس . تمضي القصيدة منه حتى تجاوز مائة بيت
عدداً ، دون خلل في نسق نظمها وضوابط إيقاعه وموسيقاه . . .

وكل هذا تعرفونه فيما صنف علماء السلف من علوم العربية ، وما أضاف
المحدثون من دراسات لأسرار العربية في الدلالات والأصوات وموسيقا الشعر
وفن القول .

وما يزال كثير من أسرارها محجوباً عنا ، وما يزال الميدان يتسع لجديد
مما غاب عنا من هذه الأسرار . أقول هذا وأنا أشتغل منذ سنين بخدمة
النص القرآني ، فألمح من أسرار دلالات الألفاظ وأساليب البيان ما ظل
محجوباً عنا حتى اليوم . وأعتقد أن أجيالاً تأتي بعدنا ، تهتدي إلى ما لم نصل
إليه نحن من حس العربية الدقيق المرهف . وبيانها الذي وقفنا به عند قواعد
علماء الصنعة .

وحددت العربية من قديم موقفتها من الدخيل : لم ترفضه رفضاً باتاً في جمود وعناد ، ولم تطلقه دون قيد يبرزها ويمسح أصالتها .

فبقدر ما توسعت في الاشتقاق والمجاز ، ضيقت باب الأخذ من الدخيل ، صوناً لسانها ، فاستغنت إلى أقصى المدى ، بتطويع الألفاظ الفصحى لكي تؤدي المعاني الجديدة على وجه التجوز ، ولم تلجأ إلى استعارة الدخيل إلا عند الضرورة القصوى ، مع إخضاعه للصيغ العربية إما بالإلحاق ، أو بتغيير نطقه إشعاراً بتعريبه .

وقد استطاع علماء اللغة من عصر التدوين أن يستخلصوا قواعد لمعرفة العرب^(١) ، تشهد بأن الأمر لم يترك لفوضى عشوائية ، بل خضع لقواعد كانت العربية تجري عليها فيما تأخذ من اللغات الأخرى^(٢) .

من هنا جاز لبعض اللغويين أن يرفضوا القول بأن في القرآن ألفاظاً غير عربية . لا يعنون بذلك أن هذه الألفاظ لم تكن في أصولها من لغات رومية أو سريانية أو حبشية أو فارسية ، ولكنهم يعنون أن العرب عربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية ، ثم نزل القرآن الكريم وقد دخلت هذه الحروف في كلام العرب .

• • •

وكان عجباً حقاً أن يكون للغة بادية في العصر الجاهلي ، ومع العزلة النسبية^(٣) ، مثل هذه الضوابط والقوانين التي تسمى بها أرقى اللغات

(١) اقرأ باب (معرفة العرب) من مزمهر السيوطي : ص ٢٦٨ وما بعدها .

(٢) السيوطي : المزمهر ٢٦٩ .

(٣) سبق القول بأن اتصال العربية بلغات الأم التي خالطتها لا يمنع القول بالعزلة النسبية التي صانت بها لسانها من الخلط . وهذه العزلة تشتد في المناطق البعيدة عن المخالطة . وكذلك القول في بدو العربية لا يعني أن العرب كلهم كانوا بداءة ، ولكن يعني أن مناطق الفصحى التي آثرها علماء اللغة ، كانت في الغالب منازل البدو . فضلاً عن أن الجزيرة العربية في الجاهلية المعروفة لنا ، كانت تعيش =

الحديثة ، في دقة الدلالة وضوابط التعبير وقوانين التصرف والمجاز .
والأخذ والنقل . . .

ومن اللغويين المحدثين ، من يفسر هذا بأنه « كان من حظ القبائل العربية القاطنة في أصقاع الجزيرة أنها احتفظت بلغتها السامية الأصلية احتفاظاً ظاهراً حتى لم يطرأ عليها شيء كبير من التغير والتبدل ، إذ كانت هذه الأقوام بعيدة عن الأمم الأخرى وفي مأمن من التأثير بمحضراتها كما تأثرت بقية الأمم السامية التي سكنت في الجهات المعمورة . ومن أجل ذلك امتازت اللغة العربية ، لغة تلك القبائل ، عن اللغات السامية الأخرى بزيادة عدد غير قليل من الكلمات والصيغ القديمة »^(١).

فهل يتصور عقل أو يقبل منطق . أن تصل العربية إلى هذا المستوى من الدقة والحياة بحفاظتها على لغة بدائية أولى وكلمات وصيغ قديمة ؟

« إسرائيل ولفنسون » الذي يتصور مثل هذا ويقرره . لا يلبث أن يذهب في الفقرة التالية مباشرة ، إلى أن المخالطة اللغوية بين العربية ، هذه المنعزلة . وبين لغات أخرى قد وصلت إلى حد الامتزاج « فقد كانت العرب الراحلة تتصل بأمم سورية والعراق من أقدم الأزمنة التاريخية اتصالاً متنوع الأسباب ، فقد يكون للغزو وقد يكون للتجارة وتبادل الغلات والمرافق أو لطلب الكلا والمرعى . ونجم عن ذلك تبادل أدبي وعلمي أيضاً . . . وقد امتزجت قبائل جمة آرامية وعبرية بالعرب في الجزيرة العربية أو تخومها وتركت فيها آثاراً ظاهرة ، إذ كانت من الوجهة الفكرية أرقى من عرب شمال الجزيرة »^(٢).

= عصر بدو بصفة عامة ، ومظاهر الحضرة في القرى العربية ، لم تخرج بها حينذاك عن عصر الناقة .
انظر كتاب الدكتور ناصر الدين الأسد في (مصادر الشعر الجاهل) وقابله على الفصل الموجز لعصر الخنساء ، في كتابي (الخنساء) ط المعارف سنة ١٩٥٧ .

(١) بنص عبارة « إسرائيل ولفنسون » في (تاريخ اللغات السامية) ص ١٦٢ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٢٩ .

(٢) المرجع السابق .

ثم ما هذه السامية الأصلية التي يقول إن العربية احتفظت بها ولم يطرأ عليها شيء كبير من التغير والتبديل ؟

أليست هي التي قرر في أول تأريخه للغات السامية أن « من العسير أن نتخيل ما كانت عليه اللغة السامية الأصلية ومقدار كلماتها ، بل من العبث إطالة البحث في أمر غامض مجهول نشأ ونما في عصور سبقت العصور التاريخية ؟ »

ومع ذلك ، فهذه المجهولة الغامضة ، هي ما يزعم هنا أن العربية احتفظت بها ! دعونا إذن من تلك اللغة السامية الأصلية ، البدائية المجهولة الناهية في ضباب ما قبل التاريخ ، والتي لا يمكن أن نتصور أن العربية التي وصلت إلينا ، قد احتفظت بها من طفولتها الأولى .

فهل كانت العربية تدين بربقها إلى لغات قبائل حمة آرامية وعبرية ، امتزجت بالعرب في جزيرتهم أو على تخومها . وكانت من الوجهة الفكرية أرقى من عرب شمال الجزيرة ؟

لا نسأل : فلماذا لم تنتصر الآرامية والعبرية وتفرض سيادتهما حيث سادت العربية ؟ وإنما نتابع قول « ولقسنون » في الفقرة التالية . فردبه عليه :

« ولكن يجب ألا يبالغ الباحث في مسألة تأثير الآرامية والعبرية في العربية الشمالية ، إذ ينبغي أن يحترس من الخطأ في نسبة بعض الكلمات العربية إلى أخواتها السامية ظناً منه أنها منقولة منها ، فقد يوجد عدد كبير من الألفاظ له رنة آرامية أو عبرية وهو في الواقع كان يستعمل عند العرب قبل أن يحدث الاتصال بين هذه اللغات . ثم إذا علمنا أن شمال الجزيرة قد امتزج بعناصر كثيرة من الآراميين والعبريين فقد يحدث أن تتغلب الصيغة الجديدة في نطق كثير من الكلمات »^(١).

والأمر بعد ، ليس مجرد كلمات في هذه اللغة أو تلك ، وإنما القضية المعروضة للنظر ، هي قضية المستوى العالي الذي بلغته العربية في العصر

الجاهلي المعروف لنا . من دقة الدلالة ورفاهة الحس ولطف الملحظ ،
واطراد ضوابطها في التصرف والاشتقاق ، وإحكامها في الصياغة والأداء .
وملاحظها الفنية في الأساليب .

وما تزال القضية تنتظر رأياً مقنعاً ، يشق علينا أن نصل إليه ، لأن
مراحل طفولة هذه العربية ونموها وتطورها قد غابت عنا . وبطمئن بعض
علماء فقه اللغة من مستشرق الألمان ، إلى القول بأن العربية في هذا التطور
كانت تعتمد على ما يسمونه التطور الداخلي . يعنون به أنه يأتيها من ذاتها
لا من خارج .

وأيضاً ما كان الأمر ، فهذه العربية التي تلقانا في أنحريات الجاهلية ،
على ما عرفتم من مستواها ، كانت في تلك المرحلة المعروفة لنا تاريخياً وتراثاً
تمارس حركة تطور هامة تتجه إلى استصفاء لغة مشتركة شبه رسمية ،
تلتقي عندها القبائل العربية فيما يجاوز نطاق القبيلة . تلك كانت لغة قریش ،
لا نعني بها لساناً أجدادهم ، وإنما نعني هذه اللغة المختارة التي اتصلت بلغات
القبائل واستصفت منها ما رآته ملائماً .

ذلك أن قریشاً بحكم مركزها في العاصمة الدينية والتجارية الكبرى للعرب ،
كانت تتلقى وفود القبائل في موسم الحج الذي كان في الوقت نفسه موسماً
للتبادل التجاري واللغوي . فأتاح لها هذا المركز نفوذاً لغوياً ، أيده تفتحها لتقبل
ما تستصفي من لغات سائر القبائل .

نقل « ابن فارس » في كتابه (الصحاحي ، في فقه اللغة) :

« أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم
ومحالمهم ، أن قریشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة . .

« كانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفلدون إلى مكة للحج ويتحاضرون
إلى قریش في دارهم ، وكانت قریش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها
إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصق

كلامهم ، فاجتمع ما تغيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طُبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب .

ونقل السيوطي في (المزهر) :

« وقال الفارابي في أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف : كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إيابة عما في النفس » .

وهذه الخطوة الهامة نحو اختيار لغة مشتركة ، كانت لها دعامة من اتصال وثيق بين لغات القبائل ، بدأ من قديم بهجرة القحطانية إلى الشمال وغلبة العدنانية ، ثم قواه تلاقى القبائل في المواسم الدينية والتجارية والرحلات ، وما يتبع ذلك كله من اتصال ومخالطة .

ولم تكن لغات قبائل الجنوب في اليمن وحضرموت ، أو القبائل الضاربة في تهامة وساحل البحر الأحمر وفي المنطقة الواقعة بين نجران والحواف اليمنى ، بمعزل عن الاتصال بلغة الحجاز ، بل كانت هناك علاقات متواصلة بينها لا يعوقها اختلاف اللهجات^(١) .

• • •

هل وصل هذا الاتصال بين لغات القبائل على الزمن الطويل في الجاهلية إلى أن صارت قبل ظهور الإسلام لغة واحدة ، ابتلعت كل اللغات الأخرى أو جمعت بينها في لغة مختلطة هي مزيج من كل اللغات التي انهزمت وبادت ؟ هل كان كما تصور بعضهم : « أن الواحدة من اللهجات كانت تبتلع الأخرى أولاً ثم تتكون من الاثنتين لهجة جديدة لم تكن موجودة من قبل ، وهذه اللهجات الجديدة تمتزج بأخرى ، وهكذا ظل هذا التدرج ينتقل في أزمنة طويلة في أثناء الجاهلية حتى ظهر الإسلام » ؟

(١) رجبيل بلاشير : تاريخ الأدب العربي - ص ٢٧، ٢٨ من الترجمة العربية للدكتور

إبراهيم الكيلاني - ط دمشق ١٩٥٦ .

كلا ، فالذى بين لغة قريش ، ولغات القبائل العربية الأخرى ، لم يكن ابتلاعاً ولا اندماج لغات في واحدة قد ألهمتها وتغذت بها ، وإنما كان على ما نقل « ابن فارس » من قول أئمة علماء اللغة ، نوعاً من الاصطفاء اختارت به اللغة العليا ما رضىته من لغات القبائل ، وتحاشت ما كرهته منها ، دون أن تفنيهم أو تقضى عليها ، بل اكتفت بالمجال العام المشترك وتركت لغات القبائل للمجال الحيوى الخاص بكل قبيلة .

ولا مفر من التسليم بأنه قد كانت هناك لغة عليا مشتركة ، ولغات محلية للحياة اليومية ، خضوعاً للطبيعة الاجتماعية للحياة اللغوية التى تقضى بوجود لغة للفن والثقافة والفكر ، غير اللغة المستعملة فى الحياة اليومية . وهذا ما فات أصحاب دعوى انتحال الشعر الجاهلى ، وقدرابهم من أمره أن جاء من قبائل متعددة بلغة واحدة لا تحمل أثراً لاختلاف اللهجات . وشعراء العربية اليوم يتكلمون باللهجات متعددة شتى ويعيشون بها فى ديارهم وأقطارهم ، لكنهم فى الشعر يستعملون الفصحى المشتركة ، ولسنا مع ذلك ننكر أشعارهم أو يربينا منها أنها لا تمثل لهجاتهم الإقليمية المختلفة .

والراجح أن القبائل العربية فى العصر الجاهلى ، لم تلتق على اللغة العليا فى الحياة الأدبية فقط ، بل كانت تستعملها أيضاً فى المجال الدينى حين تفتد إلى مكة فى موسم الحج ، حيث بقى لنا من تليياتهم ما لا نكاد نلمح فيه أثر اختلاف لهجاتهم ^(١) ، وإن كنا لا ننسى أن من مظاهر الاختلاف فى اللهجات - ما يبدو فى النطق لا فى الكتابة . وتراث الجاهلية قد وصل إلينا مخطوطاً من عصر التدوين ، غير مسجل على أجهزة صوتية لم تكن قد اخترعت بعد . ومع كل هذا - بقيت آثار اختلاف اللهجات فى كثير من الشواهد النحوية واللغوية ، وفيما يلقانا فى معاجم العربية من اختلاف اللغات والصيغ ، وحشد المترادفات التى تتوارد على المعنى الواحد .

(١) انظر الفصل الذى أملاه « أبو العلاء » عن تلييات العرب فى الجاهلية ، فى (رسالة

ونزول القرآن الكريم كان الخطوة الجليلة الحاسمة في الوحدة اللغوية ،
 ومع ذلك بقي أثر اختلاف اللهجات في الأحرف السبعة ، وفي القراءات ،
 إلى جانب بقاء اللهجات في نطاق التعامل والحياة اليومية للقبائل ، ثم في
 اختلاف لهجات الشعوب التي تعربت ، وتأثرت بلهجات القبائل العربية التي
 خالطها ، على ما سوف نعرض له في متابعة سير الحياة بهذه اللغة التي خرجت
 من جزيرتها قوية حية ، تواجه أكبر حركة تحول لغوي عرفها تاريخ المنطقة ،
 مستجيبة بكل مرونة وحيوية لمطالب الحياة الجديدة، وواعية لدورها الخليل
 في تلبية حاجات الحياة اللغوية لأمة قوية منتصرة ، وشعوب ذات عراق في
 الحضارة والفكر والثقافة .

obeikandi.com

العربية في أقطارها الجديدة مع الفتوح الإسلامية

من حيث وقف التاريخ مبهوراً يرصد
حركة التحول اللغوي بعد الفتح الإسلامي ،
ويرقب نفوذ العربية إلى المناطق التي عصيت
من قبل على الغزو اللغوي ،

وقف أصحاب العربية يشفقون عليها
من هذه المخالطة المباشرة ، ويرهفون سمعهم
لانتقاط ما لم يكن منه بد ، من شوائب
العجمة وعثرات اللحن .

obeikandi.com

نزل القرآن الكريم كتاباً عربياً مبيناً . معجزة رسولٍ بشرياً لكل الطعام ويمشي في الأسواق . ففرض إعجازه على العرب في عصر عز الفصحى وأصالتها ونفاتها .

وأخذ مكانه من عصر المبعث : كتاب الإسلام الخالد ، وكتاب العربية الأكبر ، في ذروة أصالتها وباهر بيانها .

وقد تقبلت العربية من عصر المبعث زاداً سخياً من أساليب البيان القرآني المعجز ، ومن الدلالات الإسلامية التي وضعها القرآن لألفاظ من العربية ، كالإيمان والكفر والإسلام والهدى والضلال والنفاق ، والصلاة والزكاة ، والساعة والبعث والقيامة والجنة والنار والصراط ..^(١)

وتهيأت العربية لتطويع ألفاظها للدلالة على ما استحدثت الحياة الإسلامية من جديد المعاني وما واجهت من آفاق ..

لكنها في الوقت نفسه واجهت مشكلات صعبة مع العرب أنفسهم في حياتهم الجديدة . ثم مع الشعوب التي تعربت بعد أن أسلمت .

خرجت العربية من الجزيرة مع كتائب المسلمين الفاتحين الذين حملوا القرآن معهم لواء عقيدة ، وكتاب لغة عليا وبيان معجز ، لكنهم حملوا معهم كذلك لهجاتهم ، وانصلوا بشعوب تنطق بغير لسانهم ، واستقروا بعد الفتح في أقطار يختلف مناخها المادى والمعنوى ، ومسلكتها اللغوى . عن مناخ الجزيرة العربية .

وظهرت بوادر التآثر على العرب الخُلُص أنفسهم قبل سواهم من أبناء الأقطار التي فتحتها الإسلام ، فكانت في تقدير أصحاب العربية أزمة لا بد

(١) انظر الألفاظ الإسلامية في (المزهر سيوطي) ص ٢٩٤ و (الصاحي في فقه اللغة)

لإبن فارس : ص ٤٤ وما بعدها .

أن تحسم، حفاظاً على لغة الدين والدولة، ولسان قوميتهم التي لا يحل التهاون فيه .

• • •

من عصر الفتوح ، كان أخطر ما بدا من بوادر الأزمة ، ما يتصل منها بلغة القرآن الكريم ، لواء الكتائب الفاتحة ، وكتاب الإسلام الذي يقدم أصول الدين وشريعته وهداه .

والعرب الذين خرجوا مع الإسلام إلى الأقطار المفتوحة ، كانوا من مختلف القبائل القحطانية والعدنانية، قرشية وغير قرشية . وقد جاءوا بلهجاتهم من منازلهم في شتى بقاع الجزيرة العربية ، وما كان لأحد أن يحجر على حريتهم في التعامل بها لولا أن الأمر اتصل بكتاب الإسلام نفسه ، من حيث كان من العرب من يقرءون القرآن بلغاتهم ، وهم يروون حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، وقد أذن لهم في القراءة بها . قصداً إلى التيسير .

والمشهور في هذه الأحرف السبعة أنها لغات العرب الفصحاء التي جرت ألسنتهم عليها ، وبينها خلاف في الألفاظ كالعهن والصوف ، وعَجَلٌ وأسرع وهلم وتعال .. وفي وجوه الإعراب كالذي في خبر (ما) التيمية والحجازية ... وليس من الضروري أن كل كلمة كانت تقرأ على سبعة أحرف ، بل السبعة مفرقة فيه ، بعض الألفاظ بلغة هذيل ، وبعضها بلغة هوازن وأخرى بلغة تميم أو خزاعة^(١) .

ومن عصر المبعث إلى خلافة عمر بن الخطاب ، كان المسلمون العرب يقرءون القرآن على ما تيسر لهم من الأحرف ، فلا يبدو الأمر مشكلاً ، فهي معان متفق مفهومها مختلف مسموعها ، ولا وجه يخالف آخر ، خلافاً ينفيه أو يضاده . كأن يقرأ بعضهم آية البقرة :

(١) اقرأ باب (الأحرف السبعة) في كتاب (الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي .

« يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه » ، وقرأ غيرهم :
« كلما أضاء لهم سعوا فيه » .

أو أن يقرأ بعضهم آية الحديد :

« يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم »
ويعرأ آخرون : أنظرونا ، أو : أمهلونا .

حتى استقروا في البلاد التي فتحت للإسلام ، فكان اختلاف المسلمين
في قراءة كتابهم الديني ، مظنة أن يُحمَل من غيرهم على محمل مريب ، فيتصور
من يتصور أن المسلمين يدلون في كلمات الله ، مما اقتضى الموقف الحاسم
من الخليفة « عثمان بن عفان » : جمع المصحف على حرف واحد هو المصحف
العثماني أو المصحف الإمام . ونسخت منه نسخ معتمدة وزعت على الأمصار ،
وأمر المسلمون بالاعتصار عليها ، وإحراق ما عداها من مصاحف كتبت على
أحرف أخرى .

وبقيت آثار اللهجات بعد ذلك ، فيما يحتمله اللفظ الواحد في المصحف
الإمام ، من وجوه القراءات المتعددة في المد أو القصر ، والهمز أو التخفيف
والإدغام أو الفسك ؛ وفي الروم والإشمام والإمالة ، والترقيق أو التثقيب ...
واستقر الأمر على سبع قراءات اختيرت لسبعة من أئمة القراء ، وتجودون الحديث
عنها عنهم مفصلاً في كتاب : (غاية النهاية في طبقات القراء) لشمس الدين محمد
ابن محمد الجزري . ت ٨٣٣ هـ ^(١) .

• • •

هذا من ناحية القرآن الكريم ، كتاب الإسلام وقمة الفصحى .

فماذا عن الفصحى ، اللغة العليا المشتركة ، على ألسنة العرب الأصلاء
الذين خرجوا من منازلهم في الجزيرة ، فكانت لغة الشعراء منهم والخطباء والكتاب
الرسميين وغير الرسميين ؟

(١) طبع السعادة بالقاهرة ، بعناية المشرق بربطراس .

عصرَ الفتح ، وقبل تعرب الشعوب الداخلة في الإسلام ، كان خروج العربية من بيئها الأصلية وبعدها عن مهدها الأول ، مَدرَجة إلى شيء من الخروج على بعض سننها في القول . فظهر اللحن على ألسنة بعض العرب الخُلُص قبل منتصف القرن الأول للهجرة .

والمعروف في تاريخ النحو ، أن اللحن ظهر على ألسنة الجليل الأول من المولدين ، أبناء الفصحاء ، ففي الخبر أن أمير المؤمنين « على بن أبي طالب » قال : إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة الأعاجم . وقال « زياد بن أبيه » لأبي الأسود الدؤلي : إن هذه الحمراء — يعنى الأعاجم — قد كثرت وأفسدت ألسن العرب .

ثم فشا اللحن من بعد ذلك بحيث اضطر أمراء البيت الأموي إلى إرسال بنهم إلى البادية أو استقدام مؤدبين لهم من البداءة ، يقومون ألسنتهم ويأخذونهم بالنطق الصحيح .

وكان من اللافت أن الشعراء الكبار ، وهم من أمراء فن القول ، لم يسلّموا من اللحن : فالفرزدق ، كبير الشعراء الإسلاميين ، وهو من بيت عربى صميم ، يخطئ في اللغة ثم يضيق بمن يؤخذونه على الخطأ . يروون في تاريخه أنه حين أنشد بيته :

وعَضَ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم يَدْعُ من المالِ إلا مُسَحَّتاً أو مُجَلَّدَفَ
سأله أبو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي : على أى شيء رفعت مجلفاً؟ قال : على ما يسوؤك !

وسمع ابن أبي إسحاق ، قول الفرزدق في مدح يزيد بن عبد الملك :
مستقبلين شمالَ الشامِ تضرّهم بحاصِبِ كَنَدِيفِ القطنِ مشورِ
على عمامتنا نُلقي وأرحلنا على زواحفَ ترجى ، مُخْطأ ريرِ
فقال ابن أبي إسحاق : أسأت ، إنما هو : ريرُ .

ولما ضاق الفرزدق بتتبع عبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي لعثرات
لسانه ، هجاه فقال :

فلو كان عبدُ الله مولى هجوتُهُ ولكنَّ عبدَ الله مولى مواليا

إذ كان عبد الله مولى آل الحضرمي ، حلفاء بني شمس بن عبد مناف. وقد
ضاق بقول الفرزدق : « مولى مواليا » أكثر مما ضاق بهجوه إياه !^(١) .

وحين نقرأ في تاريخنا الأدبي أن اللغويين كانوا يكبرون فصاحة بشار
فيقول مفتخراً : من أين يأتي اللحن وقد نشأت في فصحاء بني عقيل ،
ورُيت في حجور نسائن وهن أفصح من الرجال ؟ ونقرأ مع ذلك أن
« الأخفش »^(٢) طعن على بشار في قوله :

والآن أقصر عن سُمِّية باطلي وأشار بالوجلّي على مشيرٍ

وفي قوله :

على الغزلي مني السلام فربما لهوت بها في ظل مُخَضَّرَةٍ زهرٍ

وقال : لم يسمع من العرب الوجلي والغزلي ، قاسهما « بشار » من الغزل
والوجل . فيما يقتصر فيه على السماع دون القياس .

وطعن عليه كذلك في قوله يصف السفينة :

تلاعب نينانَ البحور وربما رأيت نفوس القوم من جريها تجري

وقال : لم يسمع من العرب نينان . جمع نون .

فبلغ ذلك بشاراً فقال متوعداً : « ويلي على القصار ابن القصارين !
متى كانت اللغة والفصاحة في بيوت القصارين ؟ دعوني وإياه ! » فبلغ ذلك

(١) الموشح للمرزباني في مأخذ العلماء على الشعراء : ٩٩ وما بعدها ط. السلفية ١٣٤٣ .

(٢) ذكر المرزباني في الموشح (ص ٢٤٦) أن المحصورة اللغوية كانت بين بشار والأخفش .

ونقل أبو العلاء أنها كانت بين بشار وسيبويه : (رسالة الفرغان) ص ٢٩ ، ط ٥ ذخائر .

الأخفش فبكى ، وذهب أصحابه إلى بشار فكذبوا عنه وسألوه ألا يهجوهم فقال :
وهبته للزوم عرضه . فكان الأخفش بعد ذلك يحتج بشعر بشار ، ليلغفه
ذلك فيكيف عنه .

وبلغ بشاراً عن « سيويه » شئاً من ذلك فهجاه وأفحش في هجائه ،
فيقال إن سيويه تحاشى بعد ذلك لإغضابه ، واحتج بشواهد من شعره^(١) .

حين نقرأ هذا ومثله ، مما جمع « المرزباني » جملة منه في كتابه (الموشح
في مأخذ العلماء على الشعراء) ندرك مدى ما طرأ على ألسنة الجليل العربي
الذى ولد وعاش بعيداً عن مهد العربية الفصحى .

• • •

وإذا كانت عثرات الألسنة العربية بحيث يتتبعها اللغويون ، فإن المشكلة
بدت أشد تعقيداً ، على ألسنة الشعوب التي تعربت بعد الإسلام .

فقد استقر الإسلام في الأقطار التي فتحها ، انتصرت العربية على اللغات
الأجنبية المفروضة على شعوب المنطقة ، ثم بدأت تواجه اللغات الوطنية
لهذه الشعوب .

ولم تجد العربية أدنى مشقة ، في اكتساح اللغات الأجنبية الدخيلة التي
فُرضت على المجال الرسمي ، وظلت بمعزل عن الشعوب المختلة ، سواء في
المشرق أو في المغرب ، ويكاد المؤرخون الغربيون أنفسهم يجمعون على أن هذه
اللغات صُفيت من المنطقة ، في القرون الأولى للإسلام :

« إن خمسة قرون من الاحتلال الروماني — لأقطار المغرب — لم تستطع
أن تترك ما يصمد أمام العقيدة الإسلامية واللغة العربية »^(٢) .

وفي مصر حيث استغرقت عهود السيطرة الأجنبية أكثر من ألف ومائة

(١) رسالة الفجران : ص ٢٩ ذخائر . وقابله على ما في الموشح ص ٢٤٦ .

(٢) إبراهيم حركات : (المغرب عبر التاريخ) ص ٧٥ ط السلمي بالدار البيضاء .

عام قبل الفتح العربى ، لم تُجند الجهود التى بذلها الغزاة على ذلك المدى الطويل لفرض لغاتهم وثقافتهم عليها ، ولم تصمد اليونانية التى كان استأثرت بالمجال الثقافى والرسمى ثلاثة قرون قبل الميلاد (٣٣٣ : ٣٠ ق م) وثلاثة أخرى بعده (٢٨٤ : ٦١٦ م) أمام اللغة العربية^(١) .

ولم يبد أن العربية واجهت فى أى قطر من المنطقة ، مقاومة من هذه اللغات الأجنبية المرفوضة ، وإنما كانت المواجهة مع اللغات الوطنية للشعوب التى دخلت فى الإسلام .

وحركة التعريب لم تبدأ مع الفتح الإسلامى وإنما انتظرت ريثما اطمأنت شعوب المنطقة إلى الدين الجديد ، ثم اتجهت إلى التعريب لكى تتعلم لغة القرآن ، كتاب دينها .

وكان من المتصور أن تجمع هذه الشعوب بين العربية لغة دين ، وبين لغاتها القومية التى صانها طويلا ضد الغزو ، لغة حياة . ولكن لم يمض جيل أو جيلان حتى كانت العربية اللسان المشترك لشعوب أمة واحدة ، هجرت إليها ألسنتها القومية دون أن يجبرها أحد على ذلك ، كما لم يكرهها مكره على أن تتخلى عن عقائدها وأديانها لتعتنق الإسلام ، بل تركت لغة العرب تخوض معركتها مع لغات الشعوب الداخلة فى الإسلام .

والعربية هى لغة الدين والدولة .

وكذلك كانت الرومانية واليونانية والفارسية والبيزنطية .

ولكن الحواجز التى صمدت قروناً ضد تلك اللغات الغازية ، ما لبثت أن تهاوت أمام اللغة العربية .

وغير مقبول ما تصوره بعض الدارسين من أن العربية انتصرت بمجرد

(١) هارولد بيل : الهيكلية فى مصر - ص ٥٥ ، ترجمة د . زكى على (١٩٥٩) .

كونها لغة الغالب ، وإنما كانت مع ما يؤيدها من جلال القرآن وسلطة الدولة ، قادرة على أن تنصير على اللغات القومية التي ضعفت لطول ما تعرضت له من حملات الغزو ، وطول ما عزلت عن المجال الحيوي للثقافة والتعليم والدواوين . وإذا كانت قد احتفظت بمكانها الشعبي ، فإن المثقفين الوطنيين انحاز بعضهم إلى الثقافة الدخيلة ، وانعزل أكثرهم ، وهم قادة الشعب الروحانيون ، في نطاق الفكر الديني بعيداً عن أى مجال ثقافى آخر ^(١) .

ولم يكن موقف الشعوب من لغة العرب أن فرطت في ألسنها فجأة ، أو أكرهت على التخلي عنها بحمد السيف كما ذهب المؤرخ « فيليب حقي » في تاريخه الكبير ، ولا صدرت به قوانين ملزمة من الدولة ؛ وإنما مر الصراع اللغوى في مراحله الطبيعية التي تحكمها سنن الاجتماع ، فبدأ بمرحلة عزلة تفاوتت بين قطر وآخر باختلاف طبيعة الإقليم قرباً وبعداً ، وميراثه الفكرى والحضارى ومسلكه الصوق واللغوى ؛ وفي تلك المرحلة كانت العربية تتعامل مع أهل الأقطار المفتوحة عن طريق الترجمة ، وكُتِبَ التاريخ الإسلامى تذكر أشخاصاً منهم بأسمائهم كانوا يؤدون وظيفة المترجمين من العربية وإليها ، في الدواوين والمعاملات ومجالس القضاء . وبعض هؤلاء المترجمين كانوا من العرب الذين يعرفون اللغات الأخرى ، وأكثرهم كانوا من أهل هذه الأقطار الجديدة ممن تفصحوا بالعربية .

ولم تطل مرحلة العزلة اللغوية ، والقرآن الكريم هناك يفتح للعربية قلوب من أسلموا ، وتعريب الدواوين يجذب المثقفين الذين يبادرون عادة إلى تعلّم اللغة الرسمية التماساً لوظائفها ، وانتقال القبائل العربية إلى الأقطار المفتوحة يأخذ شكل هجرات جماعية استقرت في مواطنها الجديدة . وألحق العرب الوافدون

(١) د . عبد المجيد عابدين : (لمحات من تاريخ الحياة الفكرية في مصر قبل الإسلام وبعده)

في (الديوان) بأهل الإقليم ، وخالطوا أبناءه وعاشوا بينهم وأصهروا إليهم ، حتى اندمجوا فيهم فاعادوا يتميزون عنهم ^(١) .

ويكفي لأخذ فكرة عن حجم هذه الهجرات الجماعية أن نقرأ في تاريخ مصر الإسلامية مثلاً : كتاب المقرئ (البيان والإعراب) عن بمصر من الأعراب) . و (خططه) التي حدد فيها منازل القبائل العربية بمصر .

وكتاب (فتوح البلدان) ، لابن عبد الحكيم (والنجوم الزاهرة) لابن تعري بردى . و (حسن المحاضرة) للسيوطي .

وفي دراسة جامعية حديثة ، استخلص الدكتور « عبد الله خورشيد البري » من هذه الكتب وغيرها من المصادر التاريخية ، القبائل العربية التي استقرت بمصر بعد الفتح ، وقد أحصى منها ستين قبيلة من القبائل العدنانية وبطونها ، ومائة واثنين وسبعين قبيلة من القبائل القحطانية وبطونها ^(٢) .

ومع هذه القبائل الوافدة ، نفذت العربية إلى مواطنها الجديدة متغلغلة في الحضر والبادي ، في السواحل والريف والجبال .

وفي هذه المرحلة ، كانت العربية تتعامل مع اللغات الوطنية مباشرة دون مترجم أو وسيط ، على أوسع نطاق غير محدود بالمجال الرسمي أو الديني . تطووع حيناً وتتساهل لكي تلتقي مع لغة الجماهير ، وتجذبهم أحياناً بقوتها وحيويتها فيأخذون منها قدر طاقتهم . ثم ما لبثت العربية أن اجتازت مرحلة التبادل أخذاً وعطاء . تأثراً وتأثيراً ، لتنتصر على اللغات الوطنية التي تركت المجال لهذه اللغة القوية المنتصرة المستجيبة لحاجات حياتهم اللغوية في يسر وسخاء ، الواعية لدورها الجليل في تعريب ألسنة شعوب عريقة في الحضارة والتاريخ . .

* * *

(١) المقرئ : البيان والإعراب : ص ١٨ .

(٢) القبائل العربية في مصر ، في القرون الثلاثة الأولى للهجرة : ص ٥٩ . ط دار

هل تأخرت حركة التعريب ؟

في مصر مثلاً ، يرى « يوهان فلك » أن الفصحى رجحت كفتها في مجال الرسميات والتعبد ، وأن لهجات القبائل رجحت في التعامل اليومي ، في نهاية القرن الثالث ، وأخذت اللغة الوطنية تتراجع إلى سهول الريف والمناطق البعيدة حتى تلاشت تماماً في القرن السادس للهجرة^(١) .

ولكن هذا التحديد موضع نظر :

فتأخر رجحان العربية إلى القرن الثالث ، وانتصارها إلى القرن السادس لا يكاد يثبت أمام ما يعرفه تاريخ مصر في أوائل عصر الولاة .

فنحن نقرأ في تاريخ مصر ، في أول العصر الأموي أن « معاوية بن أبي سفيان » أحدث في مصر وظيفة (القاصّ الرسمي) لمواجهة الفتنة بها ، إذ كان لخصوم الأموية قصاص يجمعون الناس حولهم في المساجد أو الطرق يعظونهم ويسلونهم بالقصص والحكايات وأخبار الأمم الماضية ، ويبثون في ثناياها آراءهم السياسية والمذهبية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

والقصص لا يكون لها تأثير على الوجدان العام ، إلا إذا كانت حركة التعريب قطعت شوطاً ذا بال .

والقاص الرسمي في دولة عربية إسلامية ، لا يمكن أن يتحدث بغير العربية . فهل كان الذين يحضرون مجلسه ويستمعون إليه من مهاجرة العرب دون المصريين ؟ أو كان هناك من يترجم تلك القصص إلى المصريين ؟

والخطب الدينية المنبرية في المساجد التي انتشرت من بداية عصر الفتح ، والخطب السياسية للولاة ، كانت بلا شك تلقى بالعربية في مصر وسائر الأقطار الإسلامية ، فإذا عن جمهور المستمعين لها من غير مهاجرة العرب ؟

ونقرأ في تاريخ إفريقية والمغرب ، أن جيش طارق بن زياد كان فيه

(١) العربية . ص ٢٢ - ترجمة د . عبد الحليم النجار ، ط ١٩٥١ .

عشرة آلاف من قومه البربر ، معهم ألفان من العرب ومتعربة المشرق . وقد خطب فيهم زياد بالعربية ، فهل كانت خطبه موجهة إلى العرب دون قومه البربر وهم الكثرة في جيشه ، أو أنه كان يلقي الخطبة مرتين : إحداها بالعربية والأخرى بالبربرية ؟

كل هذه الأسئلة تجعلنا نتردد فيما قيل عن طول المرحلة التي استغرقها تعرب الشعوب التي دخلت في الإسلام .

وإذ نمضي في الخامس الجواب عنها نجد أن تاريخ علوم العربية والإسلام عرف أعلاماً من المتعربين من عصر مبكر : فعلم النحو يدين « لسيبويه » وهو فارسي الأب ، (الكتاب) الإمام ، ومدرسة أبي حنيفة في الفقه نهض بها رجال من العراق في الطبقة الأولى من أصحاب المذهب . وجديد مذهب الإمام الشافعي ، حمله رجال مدرسته والطبقة الأولى منهم مصريون ، هجرة أو تعرباً . وفقه الإمام مالك ، دونه « سحنون » حامل المذهب إلى المغرب . .

والقراء السبعة الذين انتهت إليهم الأمة في قراءة القرآن ، ورجال الطبقة الأولى من القراء الذين تسلسل فيهم السند إلى الأئمة السبعة ، أكثرهم من الموالي ، لا من العرب الخالص . والموالي في المصطلح التاريخي ليسوا العبيد الأرقاء وإنما هم من أبناء الشعوب المفتوحة الذين فرضت عليهم الدولة الأموية أن يلتحقوا بالقبائل العربية ولاء^(١) .

وكل رجال الطبقة الأولى بعد الأئمة السبعة^(٢) ، الذين نجد فيهم إلى جانب العربي الصميم ، المصري والمغربي والحوارزمي والكوفي والفارسي ، من أعلام القرن الثاني للهجرة ، مما يشهد بأن العربية التي أخذت مكانتها من عصر الفتح لغة دين ودولة ، استقرت في أقطارها الجديدة من الأجيال التالية للفتح الإسلامي مباشرة ، لغة ثقافة وأدب رسمي وشعبي ، مبتدئة من جيل

(١ ، ٢) الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء .

الذين ولدوا في هذه الأقطار ، من العرب أو من نسب مشترك ، أو من أصول غير عربية .

وأيّاً ما كان الأمر ، فإن القرون التالية لهذا الاستقرار ما لبثت أن تلقت علساء من أبناء الشعوب المتعربة . كانوا من أعلام المؤلفين والمصنفين . لافى العلوم الجديدة على العربية فحسب كالمنطق والطبيعات والرياضيات ، ولكن في علوم اللغة والبلاغة كذلك . وفي علوم الإسلام : الحديث والرواية والفقه والمغازي والسير والقراءة والتفسير والتصوف . فنقرأ من طبقات النحاة واللغويين بعد سيبويه والكسائي أسماء : السجستاني ، والسيرافي ، وابن دستوريه . وأبى على الفارسي . والأصفهاني ، والسرخسي . والكرماني والأنباري ، والرازي . وابن خالويه . . .

ونقرأ في طبقات المفسرين إلى القرن الخامس الهجري ، أسماء : النيسابوري والبلخي والمصري والإدقوي ...

وفهم أئمة حملوا القاب : حبر الأمة ، وإمام العصر ، وشيخ المذهب ، وحامي السنة . وتاج العلماء . . .

والتاريخ الذي قدّم كل هؤلاء الأعلام ، هو الذي صمّت في عصور ما قبل الإسلام ، لم يقدم إلينا عالماً مغربياً أو أديباً مصرياً بالرومانية . أو فقيهاً شامياً بالفارسية أو الرومية .

• • •

والسؤال الذي يواجهنا هنا : هل يمكن أن تظل العربية على حالها الأولى بعد أن اتسع مجالها فصارت لسان الشعوب الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ؟

لقد مر بنا ما كان من أثر المخالطة والحوار في العصر الجاهلي الصميم ، ثم ما كان من تأثير العرب الخالص في عصر الفتوح بالبيئات الجديدة التي

هاجروا إليها من منازل قبائلهم في الجزيرة . ولا بد أن تكون المخالطة أعمق أثراً وأعم شمولاً . على ألسنة الشعوب المتعربة من وراء النهر إلى ساحل المحيط الأطلسي

لو أن العربية كانت لغة الدين والدولة فحسب ، لما كان هناك مجال لأن تختلف في مشرق عن مغرب ، أو تتفاوت في الحواضر عن البوادي والريف والجبال . لكنها كانت كذلك لغة الثقافة والعلم والأدب والتأليف في الأقاليم المختلفة ، وكانت لغة الحياة بلجماهير الشعوب التي لا يصلها باللغة العليا غير القرآن الكريم .

ومرة أخرى . تواجهنا هنا عقدة الإقليمية التي أشرنا إليها في المدخل التاريخي . بما شابهها من خطأ الفهم وضلال المقاييس منذ اتخذ منها الاستعمار ذريعة تفرقة وأداة تمزيق لوحدتنا الجامعة . وقد ألفت العقدة ظلها على الدراسات العلمية التي تبحث في الملامح المميزة للشخصية العربية في كل قطر من أقطارها ، وترصد التيارات المؤثرة في المناخ الروحي أو الفكري واللغوي والأدبي ، لمناطق وطننا العربي الكبير . وصار من اليسير أن يُتهم أصحاب هذه الدراسات بالإقليمية ، في مفهومها الخاطئ الشائع .

ويبدو غريباً أن الدراسة الفقهية تحررت من هذه العقدة ، وشغلت بلمح الخصائص الإقليمية المميزة لبيئات المذاهب وشخصيات الأئمة . فلا نجد عميد كلية الشريعة بجامعة الأزهر ، أدنى حرج في أن يتحدث عن « جغرافية المذاهب الفقهية » ويؤيد « دراسة الفقه الإقليمي » ويعني بها « تأثير الأقاليم الإسلامية في هذه المذاهب التي استوطنتها وعاشت فيها » ثم يخلص في الشرح قائلاً :

« والواقع الذي لا مربة فيه . أن الفقه المذهبي قد تجلج في كثير من

الأحيان من تلك القيود النظرية التي كانت للفقهاء الأول ، إلى مناهج قد تأثرت بالأقاليم التي انتشرت فيها المذاهب ، والمناطق التي استقر بها العمل فيها ، حتى اتخذ طابعاً إقليمياً خاصاً في تلك البلدان والأمصار ، شأنه فيه ككل كائن حتى يخضع لعوامل الزمان والمكان . ومن أمثلة ذلك : القديم والجديد من مذهب الإمام الشافعي ، فالمشهور أن القديم هو ما قاله بالعراق إفتاء وتصنيفاً ، والجديد ما قاله بمصر .

« ومثل ذلك يقال عن المذهب المالكي ، فهناك طريقة للعراقيين وطريقة للمغاربة ، وأخرى للقرطبيين بالأندلس ، وطريقة رابعة لإقليم مصر ممزوجة من الأقاليم الأخرى .

« وفي العصور المتأخرة ، يختلف الفقه الشافعي في مصر وجزيرة العرب عنه في الملايو وإندونيسيا ، اختلافاً بينا ، تبعاً للعادات والبيئات التي يعيش فيها المذهب

« وإنه لمن الأوفق وثوقاً والأوثق توفيقاً ، التفكير في تصنيف الفقه إلى مناطق تمثل كل منطقة منها وحدة جغرافية اجتماعية ، تقوم على أساس أن لكل منطقة مميزاتها في نطاقها الاجتماعي والثقافي ، تبعاً للعادات والملابسات النفسية والاقتصادية والسياسية ، وأحوالها الطبيعية والجغرافية »^(١)

وأضيف : إن تاريخ الفقه يعرف هذه الفروق الإقليمية ، في مذاهب الفقهاء الأئمة الأولين ، لا في المناطق التي انتقلت إليها فحسب . فذهب الإمام أبي حنيفة أنجه إلى الرأي والقياس تأثراً بالبيئة ، وأخذ الإمام مالك بالآثر لوجوده في المدينة التي عاش فيها الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة بعد الهجرة . والإمام الشافعي قرأ (موطأ الإمام مالك)

(١) انظر مقدمة الدكتور عل حسن عبد القادر، لكتاب أحمد تيمور (نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة) ط لجنة نشر المؤلفات التيمورية ١٩٦٥ .

في المدينة ، ثم تلقى مذهب أهل الرأي في العراق ، على محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة ، ثم أقام بمصر ، فعدل عن الرأي إلى الحديث ، مع ميل إلى التحليل وحرية النظر ورد فروع المسائل إلى أصول ، وحصر الجزئيات في كلية^(١) .

• • •

أما الدراسة الأدبية واللغوية فما تزال تحمل أثراً من هذه العقدة التي تحررت منها الدراسة الفقهية ، برغم سبق القدامى من المؤرخين والنقاد ، إلى تقديم دراسات متخصصة في أدب الأقاليم بالشرق أو المغرب ، مثل « يتيمة الدهر » للثعالبي ، و « خريدة العصر » للعماد الأصفهاني ، و « النخيرة » لابن بسام ، و « نفح الطيب » للمقرئ التلمساني .

وكان للمحاولة الجليلة التي قدمها أستاذنا « أمين الخولي »^(٢) في تحرير نظرية الإقليمية في فهم الأدب وتاريخه من الظلال التي شابها ، أثرها المأم في توجيه هذا الجليل من الجامعيين إلى الدراسات المتخصصة في آداب الأقاليم العربية ومناطق كل قطر منها .

فلا حرج علينا إذ نحن مضينا في ملح العوامل الإقليمية التي أثرت في لغتنا من قديمها المعروف لنا إلى عصرنا الحاضر .

• • •

ليس من السهل أن يتبع الراصد سير العربية في أقطارها الجديدة . فالحياة اللغوية تخضع لمؤثرات شتى قديمة وطائرة ، مناخية ومزاجية وبيولوجية ، متشابكة في نسج معقد .

ويمكن مع هذا أن نجمل القول في سير الحياة بلغتنا ، فتراها كانت

(١) انظر الجزء الأول من كتاب (مالك بن أنس: ترجمة محرة) للأستاذ أمين الخولي .

ط الحلبي بالقاهرة . وكتاب (الإمام الشافعي) ، للشيخ مصطفى عبد الرازق .

(٢) في كتابه : في الأدب المصري . ط المعارف بالقاهرة .

محكومة بتيارين متقابلين : أحدهما يشدها إلى أصلها القديم ويرى في أي خروج عليه ظاهرة فساد وتدمير خطر ، بل يهدد الزمن نفسه عدواً ذا !

ويشدها تيار آخر إلى مجرى الحياة الدائب المتدفق . منطلقاً بها مع الزمن لا تتوقف .

والتياران . على بُعد ما بينهما ، يحددان نوعاً من الاتزان بين قديم يحمي الأصالة . وجديد يمدّها بالحياة ويساير بها الزمن ، ويقاوم الجمود ، عدو الحياة . .

• • •

ومن حيث وقف التاريخ يرصد حركة هذا التحول اللغوي الخطير . ويرقب نفوذ العربية إلى المناطق التي عصيت من قبل على أي غزو لغوي خارجي . وقف أصحاب العربية يشفقون عليها من هذه المخالطة المباشرة .

ومن حيث أرهف الزمن سمعه ليصغي إلى العربية يُنْطَقُ بها في ريف مصر والعراق والمغرب ، وعلى سفوح لبنان وقاسيون والأطلس وأوراس . والبداءة في الصحاري المنزلة بعيداً عن السواحل والوديان ، أرهف حُماة العربية سمعهم لالتقاط أي لحن أو شائبة من عجمة تشوب هذا اللسان الشريف الذي نزل به القرآن الكريم . كتاب الإسلام ومعجزة نبيه عليه الصلاة والسلام .

واللغة العربية ماضية في حركتها تتسع وتندو وتتلقى جديد الروافد في مرونة سخية . وحراسها ساهرون عليها لحماية أصالتها .

وأخذت الحياة اللغوية مجراها في جانبيين :

النصحي العالية المشتركة . لسان العربية ديناً ودولة وثقافة وعلماً وأدباً . وطبقاتها الإقليمية على ألسنة الشعوب المتعربة .

أما النصحي . فكانت الحركة المضادة لاختلاط الألسن وتيارات الغزو

الشعوبى . هى حركة الجمع والتدوين التى ازدهرت فى القرن الثانى الهجرى وأخذت وضعاً دينياً وقومياً بالغ الخطر . وقد استطاعت حركة الجمع أن تأتى بقدر كبير من تراث الجاهلية . حيث العربية فى وطنها لم تختلط بالألسن ولم تشبها شائبة عجمة . وشد الرواة رحالهم إلى البادية والمناطق البعيدة نسبياً عن التيارات الوافدة ، ليأخذوا من أفواه الأعراب ما وعث ذاكرتهم من تراث الآباء والأجداد . ولم يفت أولئك الرواة ما لحق بالشعر من آفات الوضع والانتحال . غير أن الحركة كان لها من الحرمة ما يصونها إلى حد كبير من عبث الأهواء وتزييف المرتزقة من الرواة ، ويخضعها لرقابة دقيقة صارمة كشفت عن أكثر الزائف والمنحول ، وميزت رواية عُرِفوا بالضبط والثقة والأمانة ، وجرحت آخرين بالتهاون أو الكذب والوضع . ذلك لأن حركة الجمع والتدوين قُصد بها أول ما قصد ، إلى حماية لسان الأمة وخدمة كتاب الإسلام وفهم ألفاظه وتوجيه إعرابه ولح أسراره فى التعبير والبيان ، وقامت فى القرنين الثانى والثالث للهجرة على أيدي رواة أئمة ، من الخبراء ذوى البصر بالشعر « يعرفون صحيحه من زائفه كما يعرف الجوهرى والصيرفى صنوف الدرهم والدينار » بنص عبارة ابن سلام فى مقدمة (طبقات الشعراء) .

والذى فات أولئك الخبراء كشفه من المنحول ، كان من مهارة التقليد بحيث يحمل خصائص الأصل^(١) .

واستطاعت هذه الحركة التاريخية أن تستخلص للفصحى معجم ألفاظها وقواعد نحوها واشتقاقها وخصائص أساليبها وضوابط شعرها . والقرآن الكريم فى قمته العليا ، يجلو العربية فى ذروة نقائها ومعجز بيانها .

ومعروف أن علماء اللغة حاولوا أن يقفوا فيما يعتمدون من شواهد

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ، الفصل الأول .

^١ واقرأ معه الفصل الأول من (تراثنا بين ماضٍ وحاضر) مطبوعات المهد ١٩٦٨ .

لغوية ، عند تراث العصر الجاهلى وصدر الإسلام ، وتحاشوا الأخذ عن المولدين ولو كانوا فى مثل فصاحة بشار . لكن العربية لم تجمد عندما أرادها لها اللغويون ، بل تابعت نموها وتوسعها لتنى بحاجات الحياة اللغوية للدولة الإسلامية الكبرى ، وفرضت على المعجميين أنفسهم ألا يقفوا عند رصيدها الذى جاءت به حركة الجمع .

• • •

والفصحى كانت اللغة العليا المشتركة ، لشعوب تباعدت أصولها واختلفت أقاليمها وتفاوتت أمزجتها وميراثها الفكرى والثقافى والحضارى .

فهل كانت فى المجال الثقافى والأدبى : محصنة بمناعة تحميها من التأثير بالعوامل الإقليمية ؟

أشرنا فى المدخل التاريخى إلى أن الشعوب المتعربة حملت معها تراثها الثقافى والحضارى .

كما كان للمزاج المحلى والتراث الروحى أثره فى الفرق الإسلامية والاتجاهات الروحية ، فتأثر مناخ العراق مثلاً بترائه القديم وبالتيارات الوافدة من الشرق الأسيوى ، واستقر به المذهب الشيعى بما دخل عليه .

وظهرت الصوفية فى مصر متأثرة بمزاجها الدينى الصافى ، ووجدانياتها المتوهجة . وفى المجال اللغوى تميزت مدارس معروفة فى النحو والبلاغة ، فى الكوفة والبصرة وبغداد ومصر . واضطلع المغرب بدور جليل فى الدراسات الإسلامية لموقعه الهام على تخوم دول مسيحية .

واتسعت العربية لهذه الآفاق المترامية ، فكانت لغة العلم والثقافة والأدب لشعوب الدولة الكبرى .

وسبقت الإشارة إلى أن العربية فى آفاقها الجديدة كانت محكومة بتيارين من المحافظة والتجديد ، يكفلان لها نوعاً من الاتزان ، على بعد ما بينهما .

وقانون حفظ الذات ، يرفض التخلي عن أصيل العربية كما عرفته في عصر نقائها .

وقانون الحرص على البقاء يستجيب لكل دواعي النمو والتطور ، ولو كان ذلك على حساب ما هو أصيل وعريق .

ولقد استطاعت العربية بمرونة فائقة ، أن تتحاشى أزمة موقفها بين القديم الأصيل والمحدث الطارئ ، بتطويع دلالات الألفاظ والتوسع في المجاز ، لكي تؤدي المعاني الجديدة التي لم يكن للعرب عهد بها من قبل . وكانت تجربتها التي أثرت بها بالمصطلحات والألفاظ الإسلامية من عصر المبعث إلى عصر الفتوح ، قد نجحت تماماً في هذا التطويع للغة الجاهليين الوثنيين ، دون أن تجد مشقة أو عسراً لتكون لغة الأمة الإسلامية^(١) .

والقرآن الكريم قد تكفل بالقدر الأكبر من تطويع ألفاظ العربية للدلالات الإسلامية ، فسار المسلمون في العهد الأول على الهدى القرآني ، فوضعوا مصطلحات علوم السنة والحديث والفقه والأصول والمذاهب والنظم الإسلامية . كما طوعوا ألفاظ الفصحى الجاهلية للدلالات الاصطلاحية التي احتاجت إليها علوم النحو واللغة والعروض والبلاغة وسائر علوم العربية .

وكان الاتجاه السائد في تلك المرحلة ، الاستغناء بالمجاز والتوليد والاشتقاق عن الدخيل إلا عند الضرورة . وكانت العربية كلما احتاجت إلى الدخيل ، سارت على نهجها في تعريب ما تأخذ منه ، بتغيير اللفظ أو الصيغة ، وإلحاقه بآخر عربي ، كي تضع على المعرب طابعها وتتصرف فيه بالإعراب ، واشتقاق الأفعال والمصادر وسائر المشتقات ، وإجراء الصيغ العربية عليه في التثنية والجمع والتذكير والتأنيث والتصغير والنسب . . .

وبلغ من دقة ضوابط التعريب ، أن استطاع اللغويون استخلاص القوانين التي كانت العربية تجري عليها في تعريب الدخيل وإلحاقه

(١) السيوطي : المزمع في علوم اللغة - ص ٢٩٤ وما بعدها .

والتصرف فيه . كما استطاعوا من العصور الإسلامية الأولى ، استنباط قواعد لمعرفة العرب والدخيل ، والقيام بمحاولات إحصائية لحصر ألفاظهما وردها إلى أصولها من اللغات الأخرى^(١) مما يشهد بأن حركة الأخذ والتعريب في مراحلها المتقدمة كانت محدودة المجال والنطاق ، لا سيما في اللغة القصصية المشتركة المعترف بها على مستوى الدولة ، في الأدب والعلم والتأليف .

• • •

لكن اتساع الدولة الإسلامية وتدفق الدماء الجديدة في شرايينها ، جعل من الصعب أن يظل الأمر على ما كان من حصر الدخيل أو العرب في النطاق الضيق . فالأُم التي أسلمت وتعربت ، كان لها ميراث فكري وعلمي احتاجت إليه الدولة ، وفرضه تطور النظم الإدارية والسياسية في الحكم ، مع سيادة العربية واستقرارها لسانا للشعوب التي هجرت ألسنتها الأولى إلى لغة القرآن .

وبدا من الضروري أن تتوسع العربية فيما ضيّقت من باب الدخيل والعرب . وتقدم أبناء الأقطار الإسلامية ممن تعلموا العربية ، ينقلون إليها ذخائر التراث القديم للأُم العريقة في العلم والحضارة ، في علوم جديدة تماماً على العربية ، لم تكن قد مارسها أو اتصلت بها قبل الفتح .

وحركة النقل بدأت مبكرة في العصر الأموي برعاية أمير مستنير مثقف من الأسرة الحاكمة ، هو « خالد بن يزيد بن معاوية » ثم نشطت الحركة في العصر العباسي الأول تحت رعاية الدولة ولحسابها ، وتحمل بيت المال النفقات الباهظة لحركة الترجمة التي أخذت وضعاً رسمياً بالغ التنظيم والدقة . واستكملت أجهزتها من الخبراء والمترجمين والمراجعين والخطاطين والنساخين . ولم تدخر الدولة وسعاً في التماس كنوز المعرفة القديمة من مظانها . فنقرأ

(١) تجد هذا كله بتفصيل ، في كتب : العرب للجواليقي ، وشفاء الغليل للخفاجي ، والباب التاسع عشر من (الزهر) للسيوطي .

في تاريخ عصر الرشيد أنه ألف هيئة علمية بإشراف « ابن ماسويه » مهمتها تقدير التعويضات التي تدفعها الدول المهزومة من ذخائر كتبها . ونظّم « المأمون » محمداً علمياً للترجمة ، فيه أعلام المترجمين والخبراء في الفلسفة والرياضة والطبيعة والنلك والطب وسائر العلوم التي عرفها القدماء ^(١) .

وسايرت العربية هذه الحركة التاريخية ذات الأثر البعيد في الحياة الفكرية واللغوية والحضارية ، فاستوعبت تراث الأمم القديمة لم تكده تدع منه شيئاً ذا بال .

ولا أطيل الوقوف عند الجدل الذي أثير حول ملكية هذا التراث العلمي والفكري ، وقيل فيه إن التاريخ لم يعرف للعرب قديماً في الحضارة والعلم ^(٢) ، بل يكفي أن ألفت إلى الحقيقة التاريخية التي تجعل من تراث الشعوب المتعربة تراثاً للأمة العربية المكونة من هذه الشعوب ، وأن ماضيها الحضاري هو ماضي الأمة الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب . ثم إن تراث اليونان نفسه . مدين لتراث الشرق القديم حيث قامت حضارات عريقة رائدة ، هي في الواقع التاريخي ميراثنا جميعاً ، نحن الذين عرّفنا التاريخ أمة واحدة من القرن الأول للهجرة .

الذي يعنينا هنا ، هو أن العربية استوعبت ذلك التراث العلمي كله ، وتمثلته ، وأدته إلى الإنسانية في لسانه العربي وروحه الإسلامية . كما أضافت إليه رصيد علماء الدولة الإسلامية الذين تتابعوا على الميدان بعقلية متحررة من الخضومة العتيقة بين العلم والدين . فقدموا جديداً من العلوم الطبيعية والرياضية ، ودخلوا التاريخ العلمي رواداً لآفاق لم يستشرف لها من قبلهم . وتلقت المكتبة العربية أوليات الكتب العلمية التي ألفها الرواد فاستطاعت

(١) يمكن أن يعد « الفهرست لابن النديم » مرجعاً قريباً لثمار حركة الترجمة الكبرى .

(٢) عرض الدكتور توفيق الطويل لهذه القضية في الباب الأول من كتابه (العرب والعلم)

أن تؤدي كل مصطلحات العلوم الرياضية في الحساب والجبر والفلك والملاحة . وأن تستوعب المصطلحات العلمية في الطب والطبيعة والكيمياء والجغرافيا والصيدلة والنبات ، في مثل مؤلفات جابر بن حيان وابن يونس والبيروني والخوارزمي والحسن بن الهيثم وابن البيطار والشريف الإدريسي ، وأبي بكر الرازي وابن سينا والزهرافي والفرغاني والبتاني ونصير الدين الطوسي والإدريسي وأحمد بن ماجد ، ومن لا أحصى من علماء عصر النهضة الإسلامية التي أخذت الدور القيادي للحضارة الإنسانية في العصر الوسيط .

وفي كتاب « كشف الظنون » لحاجي خليفة - ط استانبول ١٩٤٢ - ما يعطيكم فكرة وافية عن مدى الطاقة التي مكنت للعربية من أن تترك مثل ذلك الرصيد الضخم من المؤلفات في شتى فروع العلم والمعرفة والأدب ، مع تقدير أن هذا الذي في الكتاب ، هو ما بقي لنا إلى منتصف القرن الحادي عشر الهجري من ذخائر تراثنا ، بعد أن لقي أكثره مصيره الفاجع في حروب الصليبيين وغزو التتار ، وفي الصراع السياسي والديني والمذهبي الذي ألقى بكنوز المكتبة العربية والإسلامية وقوداً لنار الحقد والتعصب والجهل . . .

• • •

ومن الخطأ الفاحش ، أن يُردَّ علماء الأقطار الإسلامية إلى أصولهم البعيدة التي كانت شعوبهم تنتمي إليها قبل الإسلام ، أو إلى سلالاتهم الأولى من عهد سام وحام ويافث !

وهي دعوى خاطئة تسلفت إلى فكرنا المعاصر من الغرب المستعمر ، كما تسلفت إليه قبلها فكرة السامية التي ألقى اليهود بذرتها في العصور الوسطى . فنجد حط الغربيون أعينهم على بلادنا راحت مطابع الاستعمار من القرن الماضي تخرج مؤلفات لسلخ علماء الدولة الإسلامية من قوميتهم العربية الجامعة ، وردهم إلى أصول قديمة فارسية أو يونانية أو هندية أو مغربية ، وهي الأصول التي قرر التاريخ أن عناصرها ذابت جميعاً في شخصية واحدة وقومية مشتركة للأمة الإسلامية .

وفي أقصى الطرف المقابل ، وقف آخرون يخلعون عن الحضارة الإسلامية صفها الحقيقية ويردونها إلى العربية^(١).

والحق التاريخي أن هذه الحضارة العلمية كانت إسلامية شاركت فيها كل شعوب الدولة ، واستطاعت اللغة العربية أن تستوعبها وتؤديها باقتدار .

والمسألة هنا لا تتقف عند الثراء اللغوي ، بل تمتد أبعادها إلى الفكر والثقافة والحضارة ، وقد اتسعت العربية لهذه الآفاق المترامية ، وتلقت من الأقطار الإسلامية ثماراً خصبة شارك فيها العلماء من مشرق ومغرب .

وما كان يمكن أن تنهض بكل هذا لولا مرونة طبيعية فيها استجابت بها للحياة ، وحيوية سخية حمتها من الجحود وأعانتها على القيام بدورها الجليل ، فلم تنحرج من إضافة معربات جديدة واقتباس أساليب محدثة وتحقيق الوجود اللغوي لشعوب أقطارها وتفاوتت بيئاتها وتناوت أصولها البعيدة .

وعلى المدى الطويل ، ما بين العصر الجاهلي والعصر الوسيط ، جدد على العربية ما جد من مقتضيات التطور وسير الزمان ، وهُجرت ألفاظ وصيغ من صميم الفصحى لم تقبلها الحياة ، واستُحدثت دلالات جديدة لألفاظ من الفصحى دخلت من الباب الواسع للمجاز . وتأثرت الأساليب في التعبير والبيان بالمنامخ المعنوي والمادى ، على اختلاف الزمان والمكان ، واستُحدث الأسلوب العلمي والفلسفي إلى جانب الأسلوب الفقهي والأدبي .

• • •

وعلى ذلك المدى الطويل أيضاً ، كان علماء اللغة ساهرين على حراستها يشدون في رقابهم على الأقلام والألسن . وإذا كان العصر الأموي قد شهد نوعاً من هذه الرقابة على الشعراء المولدين من العرب ، فإن الخرق اتسع

(١) د . توفيق الطويل : « العرب والعلم » ص ٢٠ : ٢٥ .

على الراقع بعد أن قويت المخالطة اللغوية وصارت العربية اللسان القوي للأقطار المتعربة ، دولة وشعباً . ولم يسلم خاصة اللغويين أنفسهم ، من أعلام الطبقات الأولى ، من عثرة لسان أو زلة قلم^(١) .

ولم يدع هذا إلى اليأس من الرقابة أو التخفيف منها ، بل لعلها زادت حدة وصرامة مع تدفق مجرى الحياة اللغوية . حتى صار الأمر إلى خصومة حادة بين حراس النصحي وبين المؤلفين والأدباء . ومن عصر التدوين بدأت المكتبة العربية تتلقى مؤلفات في مآخذ علماء اللغة ، على أقلام الخاصة والسنتهم .

وكتاب « الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء » للمرزباني ، يتبع هذه المآخذ على ألسنة الشعراء وهم من خاصة أصحاب فن القول ، لا يقف عند المولدين منهم ، وقد سبقت الإشارة إليهم . بل يعضى مع الشعراء المحدثين من بشار بن برد إلى ابن الرومي .

والمرزباني توفي في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة (٣٨٤ هـ) والعربية ماتزال في أوج نهضتها ، والدولة الإسلامية لم تدخل بعد في عصر الضعف والهبوط .

وفي تراثنا ، من كتب الرقابة على الخاصة من المؤلفين ، رواة ومحدثين وأدباء : « تهذيب اللغة » لأبي منصور الأزهري .
« تهذيب الأسماء واللغات » ليحيى النوى .
« إصلاح المنطق » لأبي يوسف يعقوب بن السكيت .
« إصلاح غلط المحدثين » لأبي سليمان الخطابي .
« تصحيح المحدثين » و « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » لأبي أحمد العسكري .

« تصحيح التصحيف وتحرير التحريف » لصلاح الدين الصفدي .

(١) اقرأ مثلاً من ذلك ، ترجمة الكسائي في (طبقات المفسرين للسيوطي) وشهد المحاكمة اللغوية لأبي علي الفارسي في المحشر ، برسالة الفخران - ص ٢٥٤ - ط ٥ ذخائر العرب .

« التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة بن الحسن الأصفهاني .

« التنبيهات على أغاليط الرواة » لعلى بن حمزة البصري .

« التنبيه على أوهام أبي على القائل في أماليه » لأبي عبيد البكري .

« درة الغواص في أوهام الخواص » للقاسم بن على الحريري .

« تثقيف اللسان » لابن مكي الصقلي — من لغوي القرن الخامس للهجرة ،

ت ٥٠١ هـ — ومن أبوابه : ”باب ما خالفت فيه الخاصة العامة وجميعهم على غلط“ وأبواب في لحن الخاصة . منها : ”باب غلط قراء القرآن . وأهل الحديث والفقه ، وأهل الوثائق . والطب . والسمع“ (١) .

والأمر مع ذلك ، يقوت الاستقصاء . فقاموس الفيروزبادي عليه حاشية للشيخ نصر الحوريني ، تصحيحاً واستداركاً .

وابن سيدة ، في (المحكم) لا يكاد يدع مادة تمضي دون تتبع أغلاط اللغويين فيها وقد فهم بالجهل والغفلة . وكتب الشروح والحواشي النحوية مليئة بالطعن والتجريح . وكتب المفسرين اللغويين والبلاغيين — كالبحر المحيط لأبي حيان ، والتفسير الكبير للنخعي الرازي — تحمل آثار الخلاف الحاد بينهم . يخطئ بعضهم بعضاً ويرد بعضهم على بعض .

وكتب المدارس النحوية والبلاغية . تكاد تقوم على الجدل بينهم في أوجه الخلاف . وكتب النقد الأدبي ، تضع في ميزان الترجيح بين الكتاب والشعراء ما أخذ عليهم من سقطات لغوية ، وخروج على سنن النقصاء في الأساليب !

ويكفي لبيان صرامة هذه الرقابة اللغوية ، من حراس النصحي في تتبع عثرات الألسنة وسقطات الأقلام : أن نجد من اللغويين أنفسهم من

(١) من باب ٣٥ : ٤٠ في طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٥٦ تحقيق

د . عبد العزيز مطر .

تصدوا للرد عليهم ، وألفوا كتباً في تصحيح ما عدوه خطأ ، أو التماس وجه للصواب فيه .

فكتاب الحريري (درة الغواص في أوهام الخواص) رد عليه ابن الخشاب وابن برى ، وألف « الشهاب الخفاجي » - وهو من معاصري الحريري ، ت ٥١٦ هـ - كتاب (شرح درة الغواص)^(١) لبيان أوهام الحريري في أوهام الخواص !

ثم جاء العلامة « الألويسي » ، فأخذ في كتابه (كشف الطرة عن الدرة) موقفاً وسطاً بين الحريري والشهاب الخفاجي : أقر من درة الغواص بعض أوهام الخواص ، وسلم ببعض ما رده الخفاجي منها في شرح الدرة .

وما ذكره « ابن مكي الصقلي » في (تنقيف اللسان) من أغلاط الخواص ، رد عليه « ابن هشام اللخمي » ، - وهو قريب من عصره ، ت ٥٧٧ هـ - في كتابه (المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان)^(٢) .

ونوشك أن نقول إن مدار أكثر الخلاف بينهم ، كان على القواعد التي وضعها النحاة أكثر مما كان على سنن الفصحى ذاتها ، كما يبدو بوضوح في كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) لابن الأنباري و (الرد على النحاة) لابن مضاء القرطبي .

* * *

وما من شك في أن تشدد اللغويين في رقابهم ، كان ضرورياً لكبح التهاون في الفصحى أو الخروج على سننها ، وقد كانوا يمثلون التيار المحافظ الذي لم يكن منه بُدٌّ لكي يحمي أصالة العربية .

في الوقت الذي مضت اللغة فيه تسابير الزمن وتستجيب لتجدد الحياة واتساع آفاقها ، كي تبقى ولا تموت .

(١) ط الجواذب ، سنة ١٢٩٩ هـ .

(٢) مخطوط بمكتبة الإسكوريال ، ومنه بمصرنسختان مصورتان بعنوان (الرد على كتابي

لحن العامة للزبيدي ، وتنقيف اللسان) .

وما كان يبدو من صدام بين التيارين ، هو الذى حفظ التوازن لهذه العربية الفصحى التى حققت وجودها اللغوى متصلة بأصلها النقى العريق ، ومتجددة مع الحياة التى لا تسمح بالبقاء لما لا يصلح للبقاء .

• • •

ومن ناحية أخرى ، أخذت لغة الحياة والتعامل حريتها فى الحركة والتوسع ، فتخلت عن كثير من قيود الإعراب مستغنية عنها بنسق التركيب ودلالة السياق ، وطوعت الصيغ لمواجهة عوامل صوتية جبرية فرضتها طبيعة الأجهزة الصوتية لشعوب تفاوتت مسالكها اللغوية وميراثها فى الأداء . مع اتصالها فى الوقت نفسه بالفصحى العليا لغة القرآن الكريم . ومن ثم أتيح للعربية هذا الانتشار الواسع وطاعت بها ألسنة الشعوب المتعربة مستغنية عن الدرس والتلقين .

فلنلُتقِ على العربية ولهجتها الإقليمية نظرة متأنية تزيد القضية وضوحاً وبياناً .

obeikandi.com

العربية ولهجاتها الإقليمية

أخذت الشعوب المتعربة لسان عربيها عن
القبائل العربية المختلفة التي خالطها ، وكان للعوامل
الإقليمية الخاصة أثرها في كل اللهجات الشعبية
المحلية .

لكنها ظلت مع ذلك تتصل بالفصحى
العليا في القرآن الكريم الذي حفظ بحماهير
الشعب سليقتها اللغوية ، وأرهف ذوقها ببيان
المعجز .

obeikandi.com

من أين أخذت الشعوب المتعربة لغتها الجديدة ، في البوادي والحضر والريف والجبال ؟

الطبقات المتعلمة ، هي التي التقت في الفصحى لغة دراسة وتأليف ، أما عامة الشعوب المتعربة فأخذت اللغة عن القبائل العربية التي نزحت إلى الأقطار المفتوحة في هجرات جماعية ، واستقرت فيها وخالطت أهلها وامتزجت بهم . ولم يكن استقرار الهجرات العربية في مواطنها الجديدة يمضي في عشوائية مرتجلة ، بل كان يخضع لنظام دقيق يحدد لكل جماعة خطتها حيث تنزل وتقيم ، كما كان يحدد للكثائب المرابطة منازل ارتباطها داخل البلاد .

والتوزيع والتخطيط ، قاما أساساً على نظام القبيلة ، وهو المبدأ الذي استقر عليه الوضع من بداية الفتح . في مصر مثلاً نقرأ في (النجوم الزاهرة) ^(١) أن عمرو بن العاص لما بنى القسطنطينية تجمع أبناء القبائل - كل قبيلة على حدة - وراحت تتنافس على اختيار مواضعها في المدينة الجديدة . فبادر « عمرو » وعين أربعة من كبار الصحابة ، من قبائل مختلفة ، مشرفين على عملية توزيع القبائل على منازلها « فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل » .

وكذلك في مرتب الجنود المرابطين ، كان الجنود من كل قبيلة يخرجون في الربيع إلى منازل معينة جُددت لهم ، على ما ذكر « ابن عبد الحكم » في (فتوح مصر) ^(٢) . ثم إن القبائل كانت تتنافس على بناء مساجد لها ، إلى جانب المسجد الجامع . وفي (خطط المقرئ) أن عمر بن الخطاب لما افتتح البلدان كتب إلى ولاية البصرة والكوفة ومصر ، يأمر كلا منهم « أن يتخذ مسجداً للجماعة ، وتتخذ القبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة » . وكان لكل قبيلة عريفها ، يشرف على أمورها العامة . ونقرأ في كتاب (القضاء

(١) لأبي المحاسن ، ابن تنرى بروي : ٦٥ / ١ ط دار الكتب المصرية .

(٢) ذكر مرتب الجنود - ص ١٢٩ .

والولاية، للكندى) أن القاضى عبد الرحمن بن معاوية بن خديج - ت ٨٨٦هـ - جعل أموال اليتامى على أيدي عرفاء القبائل ، وجعلهم مسئولين عنها .

وليس ههنا مجال الحديث المفصل عن هذا الوضع وآثاره السياسية والاجتماعية ^(١) ، وإنما الذى يعيننا هو أن ندرك أثر هذا الوضع على حركة التعرب ، من حيث أخذت الشعوب المتعربة لسان عربيها من مثات القبائل الموزعة على الأقطار الإسلامية . والقبائل قد هاجرت بلغاتها إلى منازلها الجديدة فكان أن اختلفت اللهجات المحلية للمتعربين باختلاف لغات القبائل التى نزلت بينهم وأصهرت إليهم وامتزجت بهم .

وأكثر ما بين لهجات العربية من اختلاف ، يرجع أصلاً إلى اختلاف لهجات القبائل ، ثم كانت هناك عوامل إقليمية لا يمكن تجاهلها : تركت آثارها فى لهجات الشعوب المتعربة ، على النطاق الواسع من قلب الشرق الآسيوى إلى أقصى المغرب الإفريقى ولأندلس ، فأخذت حريتها فى التعبير بلسانها العربى على سجيها دون أن تلتزم قيود الفصحى فى الإعراب والاشتقاق والتصريف . وكل هذه اللهجات تطور مستحدثت تعربت فيه ألسنة العامة بقدر ما واتها طبيعتها وأسعفتها حناجرها ، وتطلبت حياتها .

غير أنه لا ينبغي أن يغيب عن بالنا . أنه بقدر ما كانت هناك عوامل إقليمية تختلف بها لهجات الشعوب العربية ، كان هناك عامل موحد مع كل هاتيك المؤثرات المحلية ، يحقق نوعاً من الاتصال بين الفصحى ولهجاتها من ناحية ، وبين اللهجات المختلفة ، بعضها ببعض ، من ناحية أخرى :

كان هناك القرآن الكريم كتاب المسلمين جميعاً ، على اختلاف لهجاتهم وأقاليهم وتفاوت بثائهم المادية والمعنوية ، يتلونه فى صلواتهم . ويسمعونه يتلى عليهم فى المساجد والبيوت ، فى الحواضر والقرى ونجوع البوادر وقرى الريف والجبال ، فيلتقون فيه على الفصحى فى أنقى أصالتها وأعلى بيانها .

(١) نقرأ هذا بتفصيل فى كتاب (القبائل العربية فى مصر) للذكور عبد الله خورشيد البرى .

وما من أثر إقليمي استطاع أن يعطل نفوذ هذا الكتاب الجامع الموحد ،
أو يحول دون اتصال لهجة محلية ، مهما تكن عزلتها . بكتاب العربية الأكبر .

لا يقتصر الأمر في هذا الاتصال على الألفاظ الدينية التي دخلت
في كل اللهجات الشعبية ، وإنما يمتد إلى إلف المتعربين للغة القرآن لطول
ما يتلونه أو يتلى عليهم ، بحيث صار في استطاعة أي متعرب . من العراق
إلى المغرب ، أن يسمع اللغة الفصحى في المحافل والمنابر والمواسم الدينية .
فلا يحس غربة عنها أو جفوة لها ..

والأمر هنا أيضاً لا يقتصر على المتعلمين ممن تفصحوا بالعربية ، بل
يتجاوزهم إلى عامة الأمة ، في جماهير الأميين الذي لم تنقطع صلتهم قط بالفصحى
العليا . القرآن الكريم . قمة الفصحى ومعجزة البيان .

وإذا كان اللغويون قد حاولوا تتبع ما في عاميات العربية من لحن ، كما فعل
الكسائي . وأبو بكر الزبيدي في (لحن العامة) ، وابن مكى الصقل في بعض
أبواب من كتابه (تثقيف اللسان) ، فالحالة في ذاتها تشهد بأن عاميات
العربية كانت مرجوة لديهم لأن تخضع للرقابة فلا تخرج على سنن الفصحى ^(١) .

والذي سبقت الإشارة إليه من مآخذ علماء اللغة على الخواص ، يجب
أن يوضع في التقدير حين تلقانا كتب القدامى في لحن العامة .

ولم يخل الميدان كذلك من محاولات للرد على اللغويين فيما عدوه من
أغلاط العامة وأوهامهم . كالذي في كتاب ابن هشام اللخمي (الرد على
الزبيدي في لحن العوام) وكتاب (المدخل إلى تقويم اللسان) في الرد على
ابن مكى الصقل . وابن مكى نفسه . قد ساق في كتابه أبواباً في لحن العامة
والخاصة ، كما عقد أبواباً أخرى لافتة إلى :

” ما تنكره الخاصة على العامة ، وليس بمنكر “ .

(١) نشر الأستاذ المحقق حسن حسني عبد الوهاب . عام ١٩٥٣ رسالة لمؤلف تونسي مجهول
من القرن التاسع الهجري ، عنوانها : (الجسنة في إزالة الرطانة) المعهد الفرنسي بالقاهرة .

” ما خالفت فيه العامة الخاصة ، وجميعهم على غلط “ .

” ما جاء فيه لغتان استعمل العامة أفصحهما “ .

” ما العامة فيه على الصواب ، والخاصة على الخطأ “ .

كما ظهرت محاولات لرد العاميات إلى أصول من اللهجات العربية ، أذكر منها في لغة مصر مثلاً :

(رفع الإصر عن كلام أهل مصر) ليوسف المغربي . وقد اختصره ابن أبي السرور الصديق الشافعي - ت ١٠٨٧ هـ - في كتابه :

(القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب)^(١) .

وتابع المحاولة ، في الألفاظ والبلاغة والأمثال . الأستاذ سليمان محمد سليمان في كتابه (العامية في ثياب الفصحى)^(٢) الذي يقدم أدلة من الشواهد والنصوص ، على أن كثيراً مما يبدو لنا من أخطاء العامية المصرية ، يرجع في الغالب إلى اختلاف فصحي قريش عن لغات القبائل العربية التي أخذ منها المصريون في مرحلة التعرب ، لسان عربيتهم .

كما نجد فيما قدمه « ابن مكى الصقلي » مما يخطئ فيه الخاصة ، والعامية على صواب ، شاهداً على أن جماهير العامة سلمت لهم إلى حد ما ، سليقتهم اللغوية بفضل اتصالهم بالقرآن الكريم ، وإن لم يأخذوا العربية تلقيناً وصنعة ،

ويبدو من دراسة اللهجات المحلية للعربية ، أنها فيما مارست من حرية التطويع والتصرف ، لم تترك لفوضى عشوائية . بل كانت هذه اللهجات من حيث تدري أو لا تدري ، حريصة بقدر الإمكان على ألا تخرج عن العربية الأم ، وقد وجدت فرصتها في اختلاف لهجات القبائل العربية الوافدة إليها ، فمارست نوعاً من الاختيار التلقائي لما يناسبها من تلك اللهجات .

(١) نشرته وزارة الثقافة المصرية في سلسلة (تراثنا) تحقيق السيد إبراهيم سالم .

(٢) مطبعة الفكر بالقاهرة ، ١٩٣٩ .

خلاصة ما ألفت إليه في هذه المحاضرة عن العربية في أقطارها الجديدة .
هو أن الشعوب المتعربة أخذت لسان عربيتها من لغات القبائل المختلفة
التي خالطتها ، وكان للعوامل الإقليمية الخاصة أثرها في كل لهجة من
اللهجات المحلية ، لكن القرآن الكريم كان يجمع هذا الشتات المتفرق عند
لغته العليا التي مكنت للفصحى من أسماع هؤلاء المتعربين وألسنتهم ، وأعطتهم
العربية سليقة لغوية مرفهة الحس .

ولم تحل اللهجات الشعبية دون فهم العامة لما يسمعون من نصوص الفصحى
فالجماهير التي تصلى الجمعة في المساجد الإسلامية على الساحة الكبرى ، كانت
تفهم خطب الأئمة والوعاظ دون شرح ، وقادة الجيوش في المعارك الإسلامية
كانوا يخطبون في جنودهم باللغة الفصحى ، وشعراء الحروب الصليبية وخطبائها ،
ألهبوا وجدان الجماهير بقصائدهم وخطبهم بالفصحى ، ودعاة المذاهب والفرق
كانوا يتصلون مباشرة بالعامة . ويؤثرون فيهم بالكلمة ، وما كانوا يتكلمون إلا
باللغة العربية المبسطة .

• • •

ومهما تختلف اللهجات المحلية ، فقد بقيت العربية الفصحى اللغة العالية
المشتركة . وقد كانت هناك رقابة شديدة صارمة لحمايتها . لكنها لم تتوقف
لحظة عن الحركة والنمو في عصور نهضتها ، ولم تجمد عند قديمها معاندة
للتطور . بل استجابت لدواعي الحياة فكانت لسان الأمة في الدولة الإسلامية
الكبرى من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب . ولغة فكرها الحى الناصح
وكتاب علومها الأصيلة والمستحدثة ، وأداة اتصالها بتقديم التراث الإنساني .
كما كانت أداة اتصال الغرب بالحضارة الإسلامية التي استوعبت ثمار العلوم
والمعارف من أقدم العصور إلى فجر عصر النهضة والإحياء . ولوصح ما يقال
عن جمودها ، لاضمحلت وماتت بحكم قوانين الحياة وسنن الاجتماع اللغوى .